مراكز الاشعاع الثقافي وخزائن المخطوطات بالمغرب الأوسط

د. حمدادو بن عمر
جامعة وهران

لقد كان لجهود العلماء والمؤرخين من رجالات القرون الماضية انعكاسات واضحة على الحياة الثقافية والفكرية بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط لاسيما الناحية الغربية منه، بسبب المؤثرات الجغرافية والعوامل التاريخية التي تربطه بالحواضر الإسلامية المجاورة له. وعلى هذا الأساس كان من الممكن أن يتأثر الإقليم الغربي بمن حوله وينهض بفكره وحضارته، ليجسده عمليا بفضل علمائه ومؤرخيه ومراكز المخطوطات الموجودة به. استطاعت الناحية الغربية عبر مرور الحقب التاريخية أن تبلغ شأنا كبيرا في مجالات العلم والمعرفة والتراث، وأن دولا عظيمة تكونت فيها، كما أنجبت علماء وأبطالا ملأت شهرتهم الآفاق، واعتزت بهم العربية عبر تاريخها الطويل أيما اعتزاز.

مدرسة الراشدية:

يطلق على الراشدية اليوم اسم أم عسكر([1])أو معسكر، وفي حقيقة الأمر إقليم الراشدية يضم كل من قلعة هوارة([2])وسهل غريس بما فيها أم عسكر، ولا زالت بعض آثار الراشدية إلى اليوم متمثلة في اسم قرية تدعى بالراشدية نسبة إليها. وعلى كل قلعة بني راشد تعتبر إحدى قلاع العلم والثقافة، والجهاد في الجزائر وشيدت في المنطقة التي تدعى بالوطن الراشدي([3])، وعلى هذا كان بقلعة بني راشد ثلة من العلماء والصلحاء ما لا يعلمه إلا الله، حتى قيل:" إن كل دومة في غريس بولي صالح، وكثرت الرحلة إليها، لطلب العلم والمعرفة خلال القرون الهجرية الأولى الثلاثة:11-12-13هـ/ 17-18-19م.

ومما زاد من شهرة قلعة بني راشد هو غناها بعدد من العلماء والفقهاء كما ذكرنا سالفا، حيث كانت لهم اليد الطولى في إغناء تراث حضارتنا العربية الإسلامية والمحافظة عليه في حقب تاريخية مختلفة. بداية بعصر ما قبل التاريخ، فالعصر الوسيط ثم العهد العثماني بالجزائر، نخص من بينهم: الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي الغريسي، الشيخ أبو العباس الحاج أحمد بن محمد بن هطال التلمساني، الشيخ أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، الشيخ الطيب بن المختار بن عم الأمير عبد القادر، ومن بينهم كذلك الشيخ أبو راس محمد بن أحمد الراشدي المعسكري الذي يعد" شيخ مؤرخي الجزائر العثمانية "[(4)] والشيخ مصطفى الرماصي...الخ

ولقد حظيت قلعة بني راشد باهتمام المؤرخين خصوصا بعد أن شيد بها الموحدون قلعة حصينة وهذا للدفاع عنها وعن المناطق المحيطة بها، وقد حل بها بنو راشد، وفي القرن الثاني للهجرة حل بها إدريس الأول، ومكث بها ستة أشهر، وفي نفس الفترة اتخذها بنو رستم حدودا لهم. وأقام الزيانيون عليها فيما بعد حاكما يستخلص ضرائب منطقة غريس التي كانت تعتبر خزينة مالية توفر للملكة الزيانية ربحا معتبرا، قدر بحوالي 50 ألف دورو أسباني سنويا. وكانت قلعة بني راشد قبل تأسيسها أي في أواسط القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، مدينة صغيرة لم يرد ذكرها إلا عرضا لدى كتب الرحالة أمثال الإدريسي.

واختيرت قلعة بني راشد لموقعها الاستراتيجي الهام والتي سكنتها قبائل بربرية كثيرة منها: مكناسة، وأربة، وبنو هلال، وبنو حكيم، هوارة..."([5])، ويشير ابن خلدون إلى قلعة بني راشد قائلا: " ضعضعت لحكم يوسف ابن تاشفين مؤسس دولة المرابطين في سنوات 1070–1072م" [6]، وعلى إثر سقوط غرناطة عام 1492م، واضطهاد الأسبان للمسلمين فتحت المدينة أبوابها وبصدر رحب لتستقبل مجموعات كبيرة من أهل الأندلس بما فيهم العلماء الفارين من هناك، وهذا مما جعل الإسبان يغزون المدينة حيث تمكن "الدون مارتن" إخضاع سكانها سنة 1518م([7]).

ومع مجيء الأتراك زادت أهمية قلعة بني راشد بما فيها أم عسكر الحالية، فعرفت ازدهارا عمرانيا بفضل تدشينها للأبواب السبعة المعروفة([8])ولتحول في عهدهم عاصمة للبايلك الغربي ([9])حتى فتح وهران سنة 1792م. يقول صاحب تحفة الزائر: "وأعجبهم محلها –أي الأتراك– فشرعوا في بنائها –أم عسكر– بالحجارة، ووسعوا خطتها، وتأنقوا في تشييد دورها على نحو دور الجزائر، وأطلقوا عليها اسمها القديم أم العساكر أي معسكر الجيوش، التي كانت تعرف به من قبلهم، على خلاف اسمها الحالي المعروف باسم "معسكر"[10] وجعلوها مركزا لحاكم تلك النواحي، وكانوا يواصلون الغارات منها إلى سائر الجهات ويفتحون البلاد"[(11)].

كما عرفت قلعة بني راشد ازدهارا اقتصاديا زاد من أهميتها، حيث اعتبرت مصاف الحواضر الكبرى، بفضل سوقها الكبير الذي كانت تعرض فيه كل المنتوجات المختلفة، وهذا مما زاد من تعميرها و جعلها آهلة بالسكان ، يقول البكري: "كانت –قلعة بني راشد– سوقا لزناتة فمدنها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني، وكان ابتداء تأسيسه لها سنة 338هـ، وارتحل إليها أهل المعسكر من أهل تاهرت ويلل وشاطئ بني واطيل ووهران وقصر الفلوس، فعمرت وتمدنت وعظمت، وهي في سفح جبل أوشلاس، وهو يجر فيها ذو شعراء غامضة، وقبيلها نهر سيره ينبعث من نهر شرقيها، عليه الأرجاء والبساتين من كلتا ضفتيه، وغربي فكان أسفل بساتينها مجمع وادي سيرة ووادي سي ووادي هند وعلى المدينة سور طوب وبها جامع وحمام وفنادق". هذا

يعني أن المبادلات التجارية بين مختلف جيران قلعة بني راشد كانت جد نشيطة، وهذا ربما راجع إلى إحكام الأتراك السيطرة عليها وتأمينهم لطرق القوافل التجارية التي كانت قائمة آنذاك.

ومما زاد من أهميتها هو تداول مركز العاصمة – عاصمة بايلك الغرب – من مازونة إلى أم عسكر وأخيرا وهران، قد أحدث تغييرا كبيرا على الحالة السياسية والمذهبية في المنطقة وفي المدينة على وجه الخصوص، فأصبحت محور اهتمام أصحاب المصالح وملتقى لاحتكاك الأفكار، ومقرا تقصده الوفود والقيادة لتخطيط وتنظيم حملات الجهاد لتحرير وهران والمرسى الكبير خاصة، وقد أدرك الأتراك العثمانيون فعلا هذا الموقف الرهيب والخطير في نفس الوقت، فراحوا يشركون معهم أهل الحل والعقد من العلماء ورؤساء القبائل وشيوخ الزوايا الصوفية لإحياء الرابطات خاصة الشاذلية والقادرية التي كانت متواجدة بكثرة في المدينة والمنطقة، إلى جانب الدرقاوية والتيجانية والتي تناست خلافاتها المذهبية أمام الغزو الإسباني. وهنا تكمن الأسباب التي دفعت بالباي مصطفى بوشلاغم إلى اختياره لأم عسكر بإقليم الراشدية كعاصمة لبايلك الغرب، هو أنها كانت تتميز بما يلي:

لكونها محطة تتحكم في المسلك الطبيعي الذي يشكله وادي الحمام والذي يربط بين الجهات الساحلية والأقاليم الداخلية، كما أنها مركز –عبور– مهم على الطريق الرئيسي بين قلعة بني راشد وتلمسان،مما جعلها سوقا خصبا لمنتوجات السودان، ومستودعا لبضائع فاس وملتقى لتجارة الغرب الجزائري. ونظرا لموقعها الحصين والمنيع، فهي مقامة على منحدرات جبال بني شقران على ارتفاع 600م، بمحاذاة وادي توجيان (تودمان) أو على مقربة من سهول غريس([12])، وهذا ما جعلها آمنة من كل خطر إسباني يحذق بها، ويبعد عنها التحرشات المغربية التي كانت تستهدف تلمسان وجهات الشلف، ولقد لها بهذا الموقع المنيع أن تعرف لدى الأهالي بشارب الريح([13]).

كما تزخر مدينة أم عسكر بإنتاجها الزراعي والصناعي، فسهول غريس كانت تدر مقادير وفيرة من الحبوب، إلى جانب الأصواف والجلود بنواحي قلعة بني راشد القريبة منها، بالإضافة إلى الأسلحة النارية والصابون والسروج والأجمة، ولاسيما البرانس والزرابي الفاخرة، وبذلك أضحت أم عسكر سوق خصبا ورئيسيا لقبائل بني راشد ومحطا للعشائر الكبرى بالناحية كبني عامر والحشم وهاشم وبني شقران وغيرهم.

لقد كان لهذه الميزات سندا قويا في احتفاظ أم عسكر بمكانتها الاقتصادية، ومرتبتها الثقافية بعد فتح وهران، وانتقال عاصمة البايلك إليها عام 1206هـ/ 1792م، وإخراج نخبة من العلماء والفقهاء والمؤرخين أمثال: الشيخ أبو راس الناصر

الذي كان المثل الحقيقي في تصوير الحوادث التاريخية التي عايشها وعاصرها، وهذا مرده إلى اهتمام الباي محمد الكبير الذي بلغت أم عسكر في عصره أوج قمتها وعظمتها طوال الفترة الممتدة ما بين 1779/ 1792م، حيث أقام بها المدارس المساجد ومختلف المرافق العامة التي كان لها انعكاس كبير على العلماء

و الطلبة معا. ومن مآثر الباي محمد الكبير الثقافية والتعليمية، التي تمتعت بها أم عسكر طوال حكم الأتراك لها، نشير إلى بعضها:

أعاد بناء مسجدها العتيق الذي شيد عام1761م، وهذا بعد هدمه وإعادة توسيع مساحته، و إحداث خمسة أحواض للوضوء به، حيث جلب لها الماء عبر قنوات وسواقي، إلى جانب استبدال محراب المسجد بمحراب آخر تفنن في صنعه، وهو المسمى حاليا بجامع سيدي حسن وفيه أقيمت مبايعة الأمير عبد القادر الثانية. كما بنى الباي محمد الكبير جامعا بجوار المدرسة المحمدية سنة 1207هـ/ 1793م، وهو المعروف عند أهالي أم عسكر بجامع العين البيضاء، وقد أقام به الباي ستة عشر حوضا للوضوء جلب لها الماء عبر القنوات من أرض تتوفر على ماء كان قد اشتراها لهذا الغرض. كما بنى بها مدرسة كبيرة ألحقها بالمسجد، وحتى تؤدي هذه المدرسة دورها الذي وضعت من أجله، فقد رتب لها المدرسين والنظار، وخصص لها الأوقاف الكثيرة للإنفاق عليها، إلى جانب تزويدها بمكتبة غنية بنفائس المخطوطات والكتب النادرة، بذلت من أجل الحصول عليها أموال طائلة.

وحتى يمّكن لهذه المرافق العامة من أن تلعب دورا هاما في بعث الحركة الثقافية في المنطقة والقيام برسالتها الحضارية على أكمل وجه، بادر محمد الكبير إلى تحسين أوقاف كثيرة عليها، حيث خصص ربعها للإنفاق عليها وصيانتها، إلى جانب تشجيعه للعلماء و المؤرخين، ومنحهم عطايا وهدايا تليق بمستواهم ومكانتهم الاجتماعية والعلمية في المجتمع الجزائري آنذاك. أما فيما يخص المرافق العامة والتي قصد من ورائها الباي محمد الكبير إعطاء صبغة جمالية لمنطقة الراشدية بأم عسكر، نذكر منها الفندق الجديد، والسوق القديمة داخل أسوار المدينة والحمام المعروف بحمام الأدهم، والمقبرة المخصصة لرجال أم عسكر، إلى جانب مخبزة، وعدة دكاكين تجارية، هذا بالإضافة إلى إقامته العديد من العيون في مختلف أحياء المدينة، وأرباضها كربض سيدي علي، وجلب لها الماء الصالح للشرب عبر قنوات وسواقي.

لقد كانت هذه المنشآت الخيرية والمؤسسات الدينية والتعليمية التربوية محط إعجاب كثير من الأدباء المفكرين، إذ وصفها المؤرخ المشهور ابن سحنون الراشدي في كتابه: " الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني " على أنها من أهم المؤسسات

التعليمية الزاهرة في المجال الأدبي والتاريخي والثقافي وأنها مركز إشعاع حضاري في الحضارة العربية الإسلامية عامة، وفي الحضارة المغاربية خاصة. كما ذكرها الشاعر الحاج أحمد بن علال القرومي في إحدى قصائده، التي مدح فيها الباي محمد الكبير أعماله الجليلة و مواقفه الجريئة، كبناء مسجده الكبير ومدرسته العريقة وتوليته بنفسه إدارتها بمنطقة الراشدية، ونذكر منها بعض الأبيات في هذا المجال حيث يقول:

ألق العصا وفك رحال ركائبي	بالمسجد المنشئ بأم العسكر
المحكم التشيد في شرفاته	فتراه يحسن كالرياض الممطر
عجبا له من مسجد في الأرض قد	حاكى السماء تطاولا في المفخر
تحويه مدرسة غدت آثارها	تحييه بالعلم الشريف الأشعري[14]

وقد حفلت منطقة أم عسكر في عهد الباي محمد الكبير، بمجموعة كبيرة من الأدباء والعلماء والمؤرخين الذين توافدوا عليها من أماكن متفرقة وأقاليم مختلفة والذين تخرجوا من الزوايا وخاصة الموجودة بالقرب منها: كزاوية الكرط، وزاوية القيطنة اللتان تخرج منهما علماء أجلاء وفقهاء مجتهدين وأدباء متبجلين وأئمة مهتدين كعلماء لحشم ومشايخهم ،كما توجد زاوية الشيخ المؤرخ و الفقيه العالم أبي راس الناصر المعسكري ، التي تخرج منها علماء وأدباء مثل: محمد بن علي السنوسي، محمد ابن زرفة. وإلى جانبها زاوية سيدي قادة بن المختار جد الأمير عبد القادر الحسيني حيث يوجد بها ضريح والده الشيخ محي الدين، وهي لا تزال قائمة حتى اليوم.

وعلى كل فإن منطقة الراشدية قد عرفت انتفاضات منددة بالنظام العثماني نذكر على سبيل المثال: انتفاضة درقاوة والاضطرابات التي كانت داخل السلطة التركية نفسها. ومن هنا يمكن وصف الحالة السياسية بالمنطقة عموما على أنها جد مضطربة بسبب تلك الفتن والانتفاضات التي كانت تظهر من الحين إلى آخر، والتي يصعب إخماد لهيبها، كما كانت لهذه الفتن انعكاسات على عدة علماء من بينهم الشيخ أبي راس الناصر، الذي مسته شظاياها، مما أدى بالسلطة التركية الى عزله من منصب القضاء والفتوى رغم موالاته لهم.

بعد تتبع ذلك الماضي الحافل، بدأت الراشدية تفقد مكانتها العلمية وتنحط منزلتها الحضارية، فتقلص عمرانها وتناقص عدد سكانها وبات من الممكن ومما لاشك فيه أن يبتعد عنها الطلبة والعلماء، ومرد ذلك إلى عدة أسباب منها انتشار

الأوبئة الفتاكة التي كان لها بالغ الأثر على المجتمع الجزائري، فقد قضت على كثير من العلماء من بينهم شيخنا أبو راس الناصر الذي كان ضحية وباء الطاعون المنتشر في تلك الفترة، إلى جانب فتنة درقاوة المشار إليها آنفا التي أدت إلى تخريب وتدمير للمدينة بأكملها.

مدرسة مازونة الفقهية:

من بين المدارس العلمية الأخرى والتي لا تقل أهمية عن سابقتها مدرسة مازونة الفقهية حيث اشتهرت بعلمائها الجهابذة كأبي راس المازوني وأبي طالب المازوني والشيخ هني المازوني وغيرهم كثير لا يتسع المقام لذكرهم جلهم. لقد كان لعلماء مازونة وصلحاء بطحاء الشلف والإقليم الغربي عموما، دوراً كبيراً في المحافظة على تماسك المجتمع ووحدته في مواجهة أهل الزيف والانحراف، وقد عاصر وتتلمذ على يد المازوني النوازلي كبار فقهاء القرن العاشر الهجري من أمثال العلامة أحمد بن يحيى الونشريسي صاحب المعيار الذي ترك سيرة حسنة وعلمًا ينتفع به إلى اليوم.

حيث يرجع الفضل في بروز مدينة مازونة كحاضرة علمية إلى الهجرة الأندلسية التي استقرت بها فأسست بها هذه الجالية الموريسكية زراعة وصناعة فأصبحت شبيهة بقراهم ومدنهم الأندلسية وكنا قد أشرنا في عمل سابق لنا أن كل مدينة تظهر بالمغرب الأوسط ناتجة عن استقرار الأندلسيين الفارين بدينهم من أسبانيا ومحاكم التفتيش، وعلى سبيل التمثيل لا الحصر نذكر الهجرة الموريسكية إلى مازونة، فبها ظهرت مدرسة مدينة مازونة التي أقامها الشيخ محمد بن الشريف البولداوي، وهي نموذج من نماذج مدارس الجهة الغربية من المغرب الأوسط([15]).

فلقد أسس الفقيه محمد بن علي الشارف المازوني مدرسة تربوية بمازونة في بداية القرن الحادي عشر الهجري، وقام بالتدريس فيها إلى أن لقي ربه، ثم تجدد ازدهار المدرسة على يد الشيخ أبو طالب محمد بن علي، في بداية القرن الثاني عشر الهجري، وخلفه على المدرسة أخوان من أبرز تلامذة المدرسة هما: الشيخ محمد بن هني وشقيقه الشيخ عبد الرحمن بن هني([16]).

أما أشهر طلبة هذه المدرسة فهو الفقيه العالم محمد أبوراس الناصر المعسكري المولود عام 1150هـ/ 1737م بقلعة بني راشد قرب معسكر، استوعب علوم عصره وكان من طلبة مازونة النجباء، توفي عام 1238هـ/ 17 أبريل 1823م.ترك ثروة فقهية وعلمية كبيرة وسلسلة طويلة البعض مفقود والبعض مخطوط، فقد خلف وراءه مائة وستة وثلاثين مخطوطة بين قصيرة وطويلة، ولم يطبع منها إلا اثنان([17]).

الأول: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته أو حياة أبي راس الذاتية والعلمية، نشره محمد بن عبد الكريم الجزائري رحمه الله بالجزائر عام 1990م والسيرة في حوالي 185 صفحة من الحجم الكبير، وهي سيرة مميزة تدخل في باب

السيرة العلمية، وهي تجربة غنية صادقة عن حواضر وأعلام الجزائر في عصر أبي راس الناصر المعسكري، وهو الذي عاصر قرني المصاعب والكوارث خلال القرنين الثامن عشر وعقدين من القرن التاسع عشر، والكتاب الثاني عجائب الأسفار وقد طبع مترجمًا إلى الفرنسية من طرف السيد أرنو.نشر كاملا عام 1885م، بعد أن نشره على حلقات في المجلة الإفريقية .

ومما يبرهن عن أهمية مدرسة مازونة الفقهية ما جاء على لسان أبي راس الناصر قائلاً:" سألني الشيخ محمد بن لبنة عن وجهتي، فقلت له ذاهب إلى مازونة، قال لما؟ قلت: لقراءة الفقه، فقال: والقرآن؟ فقلت له: نعرفه بأحكامه وأنصاصه وما يتعلق به، فحفظت في مازونة مختصر خليل وفهمته معنى ولفظًا في عامي الأول، ثم قرأت للطلبة الفرائض، وتتلمذ على الشيخ العلامة الناصح محمد بن القندوز المستغانمي([18])، الذي تتلمذ عليه محمد بن علي السنوسي المستغانمي بعد أن حفظ قدرًا من الكتاب والفقه على يد كفيلته العالمة الفاضلة عمته فاطمة في بوقيرات، وكان هذا العالم الفذ سيدي محمد بن القندوز قوالا للحق فقتله الباي حسن، مما أدى إلى هجرة السيد السنوسي الكبير الفقيه مجدد سيرة محمد بن عبد الوهاب بالغرب، في ليبيا والجزائر وتشاد والصحراء الكبرى.

وممن درس وتخرج من مدرسة مازونة كذلك الشيخ عدة بن غلام الله مجدد الطريقة الشاذلية ومؤسس الزاوية في جبل محنون بضواحي تيارت، ومنهم محمد بن العالم قاضي منطقة بركان، والمأمون بن العالم باش عدل وجدة، بالمغرب الأقصى.

وعرفت مازونة بعدد من الفقهاء أمثال موسى بن عيسى صاحب "ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار"، و"حلية المسافر وآدابه وشروط المسافر في ذهابه وإيابه"وهي من المجامع الفقهية الكبيرة المفقودة، وابنه يحيى صاحب الدرر المكنونة في النوازل المذكور أعلاه، أما مدينة الجزائر، فقد اشتهرت بزاهدها وعالمها عبد الرحمن الثعالبي، وتلميذه أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي (ت884هـ/ 1480م)صاحب اللامية المشهورة في العقائد التي شرحها الشيخ السنوسي(ت865هـ/ 1456م).

كما اشتهرت وهران بالعالمين المتصوفين محمد الهواري وتلميذه إبراهيم التازي وأبي العباس أحمد بن أبي جمعة المغراوي الوهراني(ت920هـ/ 1514م) صاحب الفتوى الشهيرة إلى الموريسكيين من أهلنا بالأندلس و"جامع جوامع الاختصار في والبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان" في تربية الأولاد وتعليمهم وولده أبي عبد الله محمد بن أحمد المغراوي الوهراني المعروف بشقرون الوهراني، صاحب "الجيش الكمين لقتال من كفر عامة المسلمين" وصاحب منظومة في القراءات التي نظمها حسب المحقق البوعبدلي عام 899هـ/ 1494م.

أبو زكرياء يحيى بن موسى (أبي عمران) ابن عيسى بن يحيى أبو زكريا المغيلي المازوني وهو فقيه مالكي من أهل مازونة من أعمال وهران، ولي قضاء بلده، توفي بتلمسان سنة 883هـ/ 1478م. له الدرر المكنونة في نوازل مازونة وهي فتاوى ضخمة في ديوانين في فتاوى معاصريه من أهل تونس وبجاية والجزائر وتلمسان وغيرهم ومنه استمد الونشريسي مع نوازل البرزلي وغيرها.رحل إلى تلمسان حاضرة بني زيان، فأصح أحد أبرز وجوهها العلمية في الفقه المالكي.تتلمذ المازوني على جلة من العلماء وهم:

والده موسى بن يحيي بن عيسى الفقيه الأجل والمدرس المحقق والقاضي المحقق صاحب كتاب"ديباجة الافتخار". كما أخذ المازوني العلم عن ابن مرزوق الحفيد (842هـ/ 1438م)، وقاسم بن سعيد العقباني (854هـ/ 1450م)، وأبي العباس أحمد بن زاغو المغراوي(845هـ/ 1441م).([19]) وأبو عبد الله القاضي الشريف المدعو حمو الشريف(833هـ/ 1429م، قال أحمد بن يحيى الونشريسي صاحب المعيار تلميذ المازوني:" الصدر الأوحد العلامة العلم الفضال ذي الخلال السنية، سني الخصال شيخنا ومفيدنا وملاذنا وسيدنا، ومولانا وبركة بلادنا أبي زكريا سيدي يحيى.وهو من العلماء الكبار الذين تناولوا الفتوى، وأصبحوا مرجعية فقهية، ولم يتوظف بعلمه عند السلطة.وكانت فتاوى المعيار والمازوني دائرة على فقه مالك بن أنس، لأنه المذهب الذي كان يتبعه جميع السكان باستثناء أتباع المذهب الإباضي([20]).وهكذا أصبح العلماء والقضاة، حسب نوازل المازوني، هم الذين يقومون بالسهر على تنفيذ القانون، وأنَّى لهم ذلك في مجتمع يسوده الفساد والاضطراب([21]).

وقد اشتهرت مدرسة مازونة بالمؤلفات النوازلية التي تُعدُّ مصدراً أساسياً للدراسات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية، يستفيد منها الفقيه، والمفتي، والحاكم، والمؤرخ، والجغرافي،...على حد سواء، كما أنه يستفاد من النازلة في رسم الحكم الشرعي على مسألة مستجدة (حديثة)، لأنها في عمومها تحوي فوائد قد لا تقل أهمية عن الحكم الشرعي ذاته. فهي تروي ظروفاً سياسية، واقتصادية، واجتماعية ترتب على آثارها هذا الاستفتاء. كما تتصل بظروف بيئية معقدة تتطلب من ينهض إلى إصلاحها ونجدتها، وقد تُنبه إلى أخطار داهمة على أقطار المسلمين، فتشحذ أهان وهمم ولاة الأمر إلى معالجتها قبل استفحالها، ويضاف إلى هذا كله ما يصاحب هذه المسائل النوازلية من سرد تاريخي، وجغرافي، وحِرَفي، إقليمي ومحلي، مازلنا نستفيد منه في كثير من دراساتنا المعاصرة.

مدرسة تلمسان:

والحافظ التنسي مشهور، إذ كان من أبرز وأمثل علماء القرن التاسع بتلمسان، وله تآليف عديدة من أهمها وأشهرها كتاب **"الدر والعقيان في تاريخ ملوك بني زيان"** كما اشتهر الإمام التنسي في قضية شائكة لا زال معينها لم ينضب وهي المعروفة عند

المؤرخين بقضية يهود توات، وكان البطل الذي أثارها الفقيه **عبد الكريم المغيلي التلمساني**، وقد تسبب عنها انقسام علماء بلاد المغرب العربي: تلمسان، فاس وتونس إلى قسمين: قسم أيّد المغيلي وعلى رأسه مترجمنا التنسي **والإمام السنوسي** (صاحب التوحيد)، والقسم الآخر أيد خصمه في القضية، وهو **القاضي العصنوني قاضي تمنطيط** عاصمة بلاد توات إذ ذاك، وقد بسط هذه النازلة **الإمام أحمد بن يحي الونشريسي** في موسوعته الفقهية: **"المعيار المعرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب"**.

كما حظي الإمام التنسي أخيراً بدراسة قيمة ضمنها الأخ الدكتور محمود بوعياد مدير المكتبة الوطنية بالجزائر، أطروحته التي نال بها الدكتورة، ولم يخل تأليف من تآليف التراجم بالمغرب العربي من إثبات ترجمته، كـ**"ذيل الديباج" لأحمد بابا التنبكتي** و**"البستان" لابن مريم** و**"دوحة الناشر" لابن عسكر**...الخ.

أما تأليفه المذكور في فن القراءات فهو متداول عند المقرئين ببلاد المغرب العربي، وبلغنا أنه طبع بالمطبعة الحجرية، إلا أننا لم نطلع عليه، قبل أن نتعرض لبعض تأليف المتأخرين أي في القرنين الثاني والثالث عشر نسج عليها العنكبوت خيوطه، وهي في حكم المفقود[22].

خزائن المخطوطات بالغرب الجزائري:

ومن أهم خزائن المخطوطات التي اشتهرت بالغرب الجزائري، خزانة الباي محمد المصطفى بن زرفة الدحاوي صاحب " الرحلة القمرية في الأخبار المحمدية "، التي سجل فيها حرب وهران مع الإسبان، حيث قال متحدثا عن الباي محمد بن عثمان المذكور" فكان من سابغ فضله أن زودني من خزائن كتبه عمرها الله تعالى بطول عمره، ودوام منصبه ما استظهر به عليه ما أنا بصدده، فكان كالدليل المعين على السفر، الخ...

كما كانت خزانة المؤرخ أبي راس الناصر بأم عسكر التي قال عنها في رحلته" ثمّ إني أختم هذا الباب الأبدع بما مدحت به مصريتنا التي هي بيت المذاهب الأربعة وهذه مكتوبة في بيت كتبنا في بهوها بخط بعض تلامذتنا:

فَللَّهِ قُبَّةٌ يَعُزُّ نَظِيرُهَا ... وَبَهْوُهَا قَدْ حَازَ المَبَاهِي مُبَاهِيَا

تَقُولُ لِمَنْ يَأْتِي لَهَا مُتَنَزِّهًا ... تَأْمَلُ جَمَالِي تَسْتَفِيدُ شَرْحَ حَالِيَا

بُنِيَتْ لِخِدْمَةِ العُلُومِ وَبَثِّهَا ... لِمَنْ يَرُوحُ نَحْوِي وَمَنْ هُوَ غَادِيَا

ومن بين الخزائن كذلك "خزانة الشيخ عبد القادر بن يسعد البرذعي دفين قرية الدبة(23)كان صاحبها من علماء القرن العاشر، حيث تخرج هذا الأخير من مجاجة على الشيخ محمد بن علي شيخ سعيد قدورة، فلقد كان هذا العالم يستكتب اللاجئين

الأندلسيين للنسخ، وأسّس هذه الخزانة وشحنها بأمهات الكتب، وقد بقيت هذه الخزانة رغم وجودها في بادية منقطعة محتفظة ببعض ما تبقى على طعم الأرضة والإهمال والنهب"([24]).

عليها خطّ المؤسس وتعاليقه كما احتفظت ببعض كتب نسخها اللاجئون الأندلسيون، ومن أهم ما كانت تحتفظ به هذه المكتبة وعثر عليه منذ سنوات كتاب" الدرر المكنونة في نوازل مازونة" المشار إليه آنفا. منقول من نسخة المؤلف وعليه تقريظ للعلامة الشيخ أحمد بن يحي الونشريسي صاحب كتاب المعيار، قبل هجرته إلى المغرب، ويمتاز هذا التقريظ الذي نقل من خطّه أنه ترجم فيه لصاحب الدرر المكنونة، ترجمة وافية إذ أنّ كلّ التراجم الموجودة في " ذيل الديباج " و" البستان" لم تذكر في ترجمته إلا سطورا قليلة كما ذكر الونشريسي أنه تلميذ للمؤلف([25]).

إلى جانب هذه الخزائن هناك خزانة الشيخ البشير محمودي وهي أحد أعرق خزائن المخطوطات بالغرب الجزائري، توارثها صاحبها شيخا عن شيخ، وهي تضم في طياتها عددا لا يستهان به من نفائس المخطوطات والوثائق النادرة، حيث استفاد منها الشيخ المهدي البوعبدلي، والشيخ النعيمي، ناهيك عن الباحثين والمؤرخين.

وقد كانت خزانة جدّه عمر بن دوبة([26])، تحتوي على 400 أو 500 مخطوط نفيس لكنّها أحرقت في عهد الاستعمار الفرنسي، ولم يسلم منها سوى 06 أو 07 مخطوطات، وبما أنّ الشيخ كان كاتبا، وناسخا([27])، وشاعرا، إلى جانب اطلاعه الواسع وحبه للعلم والمعرفة، فإنّ ذلك دفعه إلى بذل الجهود من مال وقيام برحلات وأسفار داخل الوطن وخارجه، مكنته من تنوع إنتاجه في مختلف الفنون والعلوم والتي بلغت 73 مخطوطا حيث لم يبق منها سوى 09 أو 10 مخطوطات.

ودائما في مجال ذكر أهم خزائن المخطوطات هناك خزانة الشيخ عبد الباقي الشعاعي وهي الأخرى من أهم الخزائن التراثية العريقة، يرجع تاريخها إلى مؤسسها الشيخ عبد الباقي بن أحمد بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد بن أحمد بن الطاهر بن زيان الحاج بن يوسف بن زيان ين الشيخ محمد العربي المكنى بابن شعاعة([28])الشريف الحسني الإدريسي. كما أورده الشيخ سعيد العقباني التلمساني في إحدى تآليفه. من بين الخزائن كذلك خزانة محمد بن يوسف الزياني البرجي، ينتمي إلى أسرة علمية تسكن البرج، وكل ما نعرف عن أسرته هو أنّ عمه أحمد بن يوسف الزياني كان من خواص الباي إبراهيم المليانى (1170هـ) الذي تولى بايا وكانت معسكر آنذاك قاعدته.

تولى محمد بن يوسف الزياني القضاء بمسقط رأسه بالبرج سنة 1861م حسبما تدل عليه وثيقة تاريخية رسمية كاتبه بها الحاكم العسكري الفرنسي للناحية يخبره فيها على موافقة الماريشال حاكم الجزائر على تعيينه قاضيا، ثمّ نجده قاضيا بواد تليلات فمدينة

سيق حوالي 1883م، وبقي على قيد الحياة إلى أوائل القرن المسيحي الجاري، أي أنه من المؤكد قد مات قبل الحرب العالمية الأولى([29]).

من الكتب التي نسخها بعض كتب الشيخ أبي راس الناصر المعسكري([30])، وكتب الشيخ الجامعي، الخ...حيث كان شغوفا بها وبالشيخ نفسه، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

1. أقوال التأسيس فيما وقع أو سيقع من الفرنسيس لأبي راس الناصر المعسكري
2. الإبريز والإكسير في علم التفسير لأبي راس الناصر المعسكري
3. الحاوي لنبذ من التوحيد والأولياء والفتاوى لأبي راس الناصر المعسكري
4. الكوكب الدري في الكلام عن الجدري لأبي راس الناصر المعسكري ([31])
5. عجاب الأخبار في لطائف الأسفار لأبي راس الناصر المعسكري
6. شرح أرجوزة الحلفاوي للجامعي
7. رحلة ابن هطال التلمساني
8. بعض الأعداد من رسالة المبشر
9. صفة المغرب المأخوذة من كتاب البلدان لأحمد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبي
10. كتاب السيد أحمد ولد قادي الداني البحثاوي الذي وضعه في أصل البحايثية ونسبهم وسيرتهم وسيرته مع الدولة الفرانسوية
11. رسالة في القضاء والقدر للشيخ عبد الرزاق الصنعاني

لقد امتازت كتابات محمد بن يوسف الزياني بالشمولية والدقة في وصف الحوادث التاريخية استنادا على من سبقه من الشيوخ والمؤرخين أمثال أبي راس الناصر، إلى أن وصلت إلى درجة التأثر بالشيخ.

هناك خزائن مخطوطات أخرى بالغر بالجزائري أمثال خزانة الشيخ الصادق بلحميسي بمازونة، وخزانة الشيخ مصطفى بن محي الدين بتغنيف، وخزانة الشيخ بن زرام الواجي، وخزانة الشيخ الواجي محي الدين. وكل هذه الخزائن حفظت لنا عبر التاريخ جزء من تلك الكنوز التي كانت تحويها في الزمن الماضي، والتي كانت قبلة العلماء والفقهاء والمؤرخين. ومما يمكن الإشارة إليه أننا نسعى في المستقبل القريب إلى وضع دراسة مستفيضة حول فهارس مخطوطات الغرب الجزائري وأهم

المخطوطات الموجودة بها، لتمكين جمهور الباحثين والمختصين والمهتمين بدراسة تراثنا الذي هو مرآة حضارتنا وذاكرة أجدادنا، إلى التعرف عليه ومن ثم تركيز الجهود على دراسته وتحقيقه.

الإحالات :

---

[1]) يقول مولاي بلحميسي:" أثبتنا هذا الرسم خلافا لمعسكر الجاري بها العرف، لأن كتابتها في كلمتين هو الصحيح خاصة بالنسبة للفترة المعينة...والمقصود منها هو الكناية على أن هذه المدينة جامعة لما حولها من العساكر كما أن " أم القرى" كناية عن المدينة الجامعة لما حولها من القرى "الأمير عبد القادر، كتاب مذكرات الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة1849، تحقيق محمد الصغير بناني، شركة دار الأمة،ط1991، ص:27-28. كما أثبتنا هذا الرسم كذلك في مخطوط قلعة بني راشد. معسكر الحالية وما جاورها كما ذكرنا سالفا هي قلعة بني راشد.

[2]) راجع مخطوط تاريخ قلعة بني راشد، لناسخه البشير محمودي، ورقات:1-3.

[3]) المصدر نفسه، ص:3.

[4]) ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر،ص:251.

[5]) مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1971، ص: 816.

[6])ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج7،ص:132.

[7]) ملتقى الفكر الإسلامي، المرجع السابق، ص: 4.

[8]) الأبواب السبعة هي: "بابا علي، باب الشرقي، القلعة، واد تودمام، عرقوب إسماعيل، عين البيضاء، سيدي علي محمد ...". p:90. el Kadar Algérie à l'époque d'abd-

[9]) كانت عاصمته قبل ذلك مازونة وهذا عام 970هـ/ 1563م، ثم انتقلت العاصمة الى أم عسكر في عهد الباي مصطفى بوشلاغم، عام 1701م.

[10]) الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، تعليق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت لبنان، ط1964، ص: 10.

[11]) أبو عبيد الله البكري، المسالك والممالك، ص:65.

[12]) أبو راس الناصر، فتح الإله(سيرة أبي راس)ص:20-21.

[13]) مولاي بلحميسي، دراسات على عصر أبي راس الناصر، محاضرة ألقيت على هامش ملتقى أبي راس الناصر، بمعسكر، سنة 1997. ص:05

[14]) Encyclopédie ; p :264.

[15]) L'Algérie à l'époque d'abd-el-kadeur, p :90

[16]) Belhamissi(m), Mazouna, une petite ville, une langue histoire, Alger, SNED,1982.P:49.

[17]) بوعبد الله غلام الله، نظرة عامة على التعليم الأهلي في سهل الشلف خلال النصف الأول من القرن العشرين (أعمال الأسبوع الوطني الثالث للقرآن الكريم) الجزائر، "منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف". 1424هـ/ 2003م.ص:37.

[18]) يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، الجزء الثاني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1995م.ص:234-244.محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته(حياة أبي راس الذاتية والعلمية) حققه وضبطه محمد بن عبد الكريم الجزائري، تقديم د.أبو القاسم سعد الله، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990م.ص:21.

[19]) ابن زاغو: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشهير بابن زاغو المغراوي التلمساني، الإمام المحقق المتفنن العابد، له شرح على التلمسانية في الفرائض وله فتاوى في المعيار، والدرر المكنونة توفي في الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة 845هـ/ 2 أوت 1441م)نيل الابتهاج، ص118.أبو الحسن القلصادي(891هـ/ 1486م)، رحلة القلصادي المسماة تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل، تحقيق ودراسة محمد أبو الأجفان، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، 1978م.ص:105.الفكر السامي للحجوي، الجزء الثاني ص/ 257.محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت، دار الكتاب العربي، ص:254. ترجمة رقم:921.

[20]) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص:392.

[21]) المرجع نفسه، ج1، ص: 43.

[22]) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج4، ص:569.

[23]) قرية صغيرة قرب قلعة هوارة التابعة حاليا لولاية غليزان.

[24]) المهدي البوعبدلي، مراكز الثقافة وخزائن الكتب بالجزائر عبر التاريخ، نشأتها وتطورها وآثارها، " مجلة الأصالة" الجزائر. ط1972، ع11. ص:104.

[25]) المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ع11، ص:105.

[26]) الشيخ عمر بن دوبة هو جد الشيخ البشير محمودي من جهة أبيه، كان متضلعا في سائر الفنون، يقول عنه حفيده البشير محمودي:" لو كان جدي عمر بن دوبة حيا لأصبحت عالما مثله بلا منازع" وهذا دليل واضح على مدى غزارة علمه.

[27]) من بين الكتب التي نسخها الشيخ البشير محمودي: كتاب عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، والخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب،لأبي راس الناصر المعسكري، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران لمحمد بن يوسف الزياني البرجي، وكتب أخرى في مختلف الفنون والعلوم.

[28]) ابن شعاعة هو محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن عيسى بن نصر بن منيع بن صالح بن عبدون بن علي بن عبد الله بن أحمد بن عثمان بن سعيد بن عبد الحميد بن يحي بن عبد العزيز بن عبد الحق بن علي بن سليمان بن ادريس بن عيسى بن سليمان بن احمد بن عثمان بن عبد الصمد بن عبد الله بن الإمام ادريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. تاج العارفين، ص:65.

[29]) ابن شعاعة هو محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن عيسى بن نصر بن منيع بن صالح بن عبدون بن علي بن عبد الله بن أحمد بن عثمان بن سعيد بن عبد الحميد بن يحي بن عبد العزيز بن عبد الحق بن علي بن سليمان بن ادريس بن عيسى بن سليمان بن احمد بن عثمان بن عبد الصمد بن عبد الله بن الإمام ادريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. تاج العارفين، ص:65.

[30]) يراجع: حمدادو بن عمر، "أبوراس الناصر المعسكري وكتاباته التاريخية،(1155-1238هـ/ 1737- 1823م"، تحت إشراف أ. د عبد المجيد بن نعمية، رسالة ماجستير مخطوطة، 2003.

[31]) حققه الشيخ بلقرد وبحوزتنا النسخة المخطوطة.